الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٠ —

الزواج والصدمة الأولى :

وفي فبراير سنة ١٦٤٤ أعاد ملتن طبع الكتيب ورتبه . فقد عاب الناس طبعته الأولى ، وقدم ملتن لطبعته الثانية بمقدمة فزع فيها إلى البرلمان أن يؤيد آراءه فيصدر بها قانونا مدنياً للطلاق ، وإلى مجمع البرسبتيرنز أن ينظر فيما يقول نظرة العطف فيسدى إلى المسيحية صنيعاً يبقى على الدهر — ولا يفوته إذ يلجأ إلى البرلمان أن يشير إلى رسالة انجلترة في هذا العالم ، فلئن اعتنقت انجلترة ما يذهب إليه من رأى ذاع هذا الرأى حتى يملأ الدنيا ، ويهيب بالنواب قائلا بعد أن يسرد الأمثلة على سبق انجلترة في العلم والدين « لا تدعوا إنجلترة تنسى سوابقها في تعليم الأمم كيف تعيش » ، ولا يفوته كذلك أن يلجأ إلى الاسبتيرنيز أن يمتدح ما اجتمع في مجلسهم من تقوى وعلم وحصافة .

كانت الفكرة الأساسية في كتيبه « قانون الطلاق ونظامه » هي أن الزواج والحب يجب أن يكون أساسهما التوافق والانسجام العقلي والروحي بين المرأة والرجل ؛ فاذا لم يتحقق هذا التوافق في الشعور والفكر بطل الزواج ، وكان الطلاق من حق الرجل متى طلبه .

وللدفاع عن هذه الفكرة الموجزة بسط ملتن القول فنظر في الزواج قديماً وحديثاً ، واستعرض آراء الأقدمين ، وآراء آباء الكنيسة الأولين ، وراجع ما جاء في الإنجيل ليأتي بما يؤيد رأيه ، ثم عمد إلى المنطق بعد الدليل النقلي فدافع عن رأيه في قوة وإيمان ، وأتى بطائفة من الآراء استقر بعضها في نفسه

فيه كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقذف ؛ ونوع فيه كفارة ولا حد فيه كالقربان في الإحرام وفي نهار رمضان ؛ ونوع لا كفارة فيه ولا حد كالنظر إلى الأجنبية واليمين الغموس عند الإمامين أبي حنيفة وأحمد .

فالنوع الأول لا تعزير فيه لوجوب الحد ، وفي الثاني قولان للفقهاء — أما الثالث ففيه التعزير وجوبا عند الأكثرين ، وجوازاً عند الشافعي .

والتعزير يختلف باختلاف الجرائم ، وبحسب حال المذنب نفسه ، ولذلك قد يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام ، ومنه ما يكون بالحبس أو بالضرب أو بالنفي عن الوطن ، وقد يكون بالقتل . وللفقهاء أقوال أربعة في صفة التعزير وقدره ، وقد بسطنا القول في ذلك في العدد ٦٤٨ من الرسالة . ومن هذه الأقوال أن التعزير موكول إلى اجتهاد ولي الأمر يقدره وفق المصلحة وعلى حسب الجريمة .

وبعد فماذا ترى فيما سقته لك من النصوص والمذاهب والآراء الفقهية في العقوبات التي تدخل في باب التعزير ، وفي غير العقوبات من الأحكام الاجتهادية الأخرى ؟

ولا ريب أن كل منصف يحكم بكمال الشريعة وسموها ، وأنه لا عذر لمن يترك شريعة الإسلام إلى غيرها من القوانين .

وبطلت بذلك دعوى الجاهلين أو الخراصين وهي أن الشريعة لا تستطيع أن تمد الحاكمين في العصر الحاضر — وبخاصة في القانون الجنائي — بالأحكام الصالحة ، فإن للمشرعين المحدثين مجالا أي مجال في الرجوع إلى آراء أئمة الإسلام واختيار الصالح لنا منها ، أو في استنباط أحكام جديدة فيما يدخل في باب التعزير على أن نحافظ على أصول شريعتنا ونراعي مقاصدها وننزل على المحكم من نصوصها ، وبذلك تستطيع الأقطار الإسلامية أن تضع قانونها الجنائي أو أي قانون آخر على أساس من الشرع قويم .

(للبحث بقية)

حسن أحمد الخطيب

حتى ظهر كجانب من فلسفته فى قصيدته الكبرى فيما بعد .

اشتدت ثورة ملتن على الجسد وفتنته وما فى سيطرته من شر وضلال ؛ ولكنه أكد أن قهره فى استطاعة أولى العزم من العقلاء الذين يغلبون الحكمة على العاطفة ، وما يسلم ملتن بغلبة الجسد أبداً وتسلطه على العقل والحكمة وهو الذى تسلط جسده مرة فى فورة من فوراته على حكمته الوثيقة وعزمه الطويل ، وإنما يعبر بهذا الإنكار عن ثورته الكامنة فى نفسه على الجسد وقد بقى هذا المعنى فى حسه حتى كان حديث غواية آدم فى « الفردوس المفقود » وما كان لسحر المرأة من أثر فى هذه الغواية .

وساق ملتن هذا المعنى إلى معنى آخر ، وذلك أن الشر هو أن تتقلب العاطفة على العقل وأن يُضلّ الوجدان البصيرة ، أما العاطفة فى ذاتها والوجدان فى ذاته فلا ضير منهما ، ولا يحق اعتراض سبيلهما إلا أن يطغيا على الحكمة ؛ فان لم يفعلا فليتخذا جراهما طليقين ... ، وما كانت قصة هبوط آدم من الجنة إلا قصة تسلط العاطفة على العقل .

ويطبق ملتن ذلك على الزواج فيقول إنه إذا لم يتم التوافق العاطفى بين الزوجين ، فان الاتصال الجسدى ضرب من انحطاط البهيمية حتى مع الزواج ؛ وعلى ذلك فان الاحساس بفقدان الميل بين الزوجين أوبالقصور العقلى من أحدهما تلقاء الآخر ، أو بتنافر العقلين ، تلك العلل التى يكون مردها إلى أسباب فى طبيعة النفس لا يمكن تغييرها ، إنما هى مبررات للطلاق أوجه من الجمود وأحق ، فالطلاق أمر يرد من حيث مشروعيته إلى ضمير الانسان ، ولا وجه عنده لأن يخضع الانسان لعبودية قانون الكنيسة الذى يجعل الإثم المادى أعظم من الإثم العقلى والروحى وأشد خطراً ...

ولا يسع من يقرأ هذا الكتيب إلا العطف على الشاعر إذ يعبر عن مقدار ما يحيق بالنفس من عذاب إذا منى المرء بالفشل فى زواجه ولم يتح له ما يتطلع إليه من وراء الزواج من « حديث طيب ملؤه السرور بين الرجل والمرأة يريحه وينعش نفسه بعد ما ذاقه من مساوئ العزلة » وما أشد ألمه وأقسى خيبته « إذا كان نصيبه زوجة خرساء لا روح لها فانه يظل أكثر عزلة من ذى قبل ، ويبقى فى تحرق وشوق أشد على طاقة المرء من التحرق الجسدى وأدعى منه إلى التفكير فيه والاهتمام به » ، ويصف الشاعر هذا التحرق وصفاً شعرياً بقوله « أن الماء الغزير لن يطفئه لا ولا الفيض يغرقه » ، وفى التطلع إلى مثل تلك السعادة الزوجية وإلى مثل ذلك الحب الصحيح « يقضى المرء أيام شبابه وليس فيها ما يلام عليه » ، ويجهل بذلك كثيراً مما كان خليقاً أن يرشده متى شاء أن يختار زوجة فيدع هذه ويأخذ تلك عن بينة كما يفعل عند الزواج من قضوا صدر شبابهم فيما لا يخلو من اللوم ثم إذا به يجد نفسه « مقيداً قيداً وثيقاً إلى من لا تجاوب بينها وبينه ولا تواؤم بين طبعها وطبعه ، أو كما يحدث غالباً إلى صورة من الطين تطلع من قبل ليكون شريكها فى اجتماع حلو ملؤه الفرح ، ويجد فى النهاية أن قيده لا انعتاق منه ؛ ومثل هذا حتى لو كان أقوى مسيحى فانه لامناص على أهبة أن ييأس من الفضيلة ويقنط من رحمة الله ، وهذا بلا ريب سبب ذلك الفشل ، وذلك اليأس الحزين الذى نراه فى طائفة كثيرة ممن يتزوجون » ، ويصور ملتن بخيال الشاعر مقدار ما يكون بين زوجين فى مثل تلك الحالة من خلاف بقوله : « حين تتنافر أفكارهما وروحاهما وتتباعدان كلاهما عن الآخر كبعد ما بين الجنة والجحيم » .

ويتساءل ملتن كيف يتسنى الاختلاط الجسدى الوثيق بين زوجين يكره أحدهما الآخر كرهاً شديداً فعالا ، ويود لو يعتزله اعتزالا تاماً هو يعيش معه أبداً ؟ » ؛ وينزه ملتن الله عن أن يكون ذلك قصده من الزواج فيقول : « هل فتح الله لنا ذلك الباب الذى يكون منه الخطر والباغتة ، باب الزواج ليغلقه من دوننا كما يغلق باب الموت فلا تراجع ولا أوبة ؟ » ، ويعود إلى تصوير ما يؤول إليه مثل ذلك الزواج الفاشل فيقول « لا بد أن يفضى ما لم تقع معجزة من معجزات الصبر فى كلا الجانبين ، لا إلى ألم مرير ، وحنق شديد فحسب ، وهما مما يوبق الأذعان لله ، بل إلى استهتار يائس فاجر ، إذ يجد المرء نفسه فى غير ذنب من جانبه قد جرته توبة من الخداع إلى فخ من فخاخ الشقاء » .

وماذا عسى أن يصنع من منى بمثل هذا الجد العاثر ؟ ... أيتسلل إلى سرير جاره كما يتبع عادة فى مثل هذه الخيبة ؟ أم

يدع حياته النافعة تذهب هباء فيما لا يجدى ؟ كلا ؛ إن الأقرب إلى الرجولة أن يقضى على شقائه بالطلاق ، فانه إن بقى على ما هو عليه ولم يستطع أن يحسب جلب على نفسه جديداً من الضر ، ولذلك فان من يعمل على فصم تلك العروة إنما هو ذلك الذى يعلى قدر الحياة الزوجية ولا يقبل أن يشينها .

ويرى من يقرأ كتيبه هذا أن الناحية العاطفية أقوى فيه من ناحية المنطق ، ومرد ذلك إلى أن الشاعر إنما يصف ما عانى من ألم نتيجة لما رزئ به من خيبة ، فهو يتحدث حديث الخبير ، كما أن حديثه هو إلى الشكوى أقرب منه إلى الدرس وفى ذلك سحره وقوته .

ولئن أبت عليه كبرياؤه أن يشير إلى ذلك ، فان من يقرأ عبارته وليس يعلم قضية زواجه خليق أن يحس تلقاء ما تزخر به من حياة وحرارة أنها متنفس نفس متألمة ، وشكاة قلب معذب . وكذلك ينم عنه فى كتيبه هذا تلمسه العلل لمثل ما وقع فيه من خطأ ، فكل امرئ عرضة لأن تخدعه المظاهر فتجره إلى ما لا يحب « وإن أكثر الناس عقلا وأقواهم تمكناً من أزمة نفوسهم هم أقل الناس تجربة فى مثل هـذه الأمور وأجدرهم ألا يعرفوا أن ما تقع عليه أعينهم فى عذراء من صمت خجول إنما يخفى وراءه ذلك الجمود وذلك الكسل الطبيعى الذى لا يصلح قط لحوار » وتكاد تلخص هذه العبارة قصة زواج ملتن بماري بوول فانه كما ذكرنا لم يك يعرفها من قبل ورأى فى صمتها وقد مال إليها عذراء فحسب ...

ومما يتعلل به ملتن من طرف خفى إشارته إلى عقيدة القدر المحتوم فهو يؤمن بها اليوم وإن أنكرها غداً ؛ فلن يفر المرء مما قدر عليه وينطبق ذلك الزواج بالضرورة كما ينطبق على غيره .

ويجد ملتن فى هذه القضية فرصة لتجديد طعنه على القساوسة فيقول إن ما يدعيه البابا ورجال الدين من اختصاص فى أمور الزواج إنما يقوم على الاغتصاب ، فان الزواج والطلاق من اختصاص رب الأسرة كما قضى بذلك الله ، وكما تقضى طبيعة الأشياء وكما ارتضى المسيح ، ولكن بابوات روما اغتصبوا ذلك الاختصاص « وقد رأوا ما يصيبون من مغانم ومن سلطة تفوق سلطة الأمراء أنفسهم من وراء قضائهم فى هذه الأمور وإبرامها » وينتهي ملتن إلى قاعدة سوف تنمو فى ذهنه ويتسع مداها فى فكره ومؤداها أن لا قانون يتقيد به الرجل الحكيم .

ويبين ملتن مبلغ ما يسديه المشرعون من خير إلى الانسانية إذا أخذوا بآرائه فى الطلاق . فيقول : « إنهم بذلك يرفعون كثيرين ممن لاحول لهم من المسيحيين من أعماق الأسى والحزن حيث لا قبل لهم قط بأداء أية خدمة لله ولا لأحد من عباده ، ويخلصون كثيرين من نفوذ الطوائف المظلمة المضطربة ، وينقذون كثيرين من الإباحية البهيمية الجامحة وكثيرين من الشقاء المؤنس ويعيدون الانسان إلى كرامته الصحيحة وإلى حقه الطبيعى ؛ ويعودون بالزواج من وضعه الحالى كفخ من الفخاخ ومسألة من مسائل الحظ يأتى منها الخطر إلى حالته المرجوة إذ يكون الرفأ الأمين والملجأ الاجتماعى السعيد .

وفى يوليو سنة ١٦٤٤ نشر ملتن مقالا مطولا جعل عنوانه « رأى مارتن بوسر فى الطلاق » ؛ ورد بهذا المقال على مخالفى آرائه التى تضمنها كتيبه « قانون الطلاق ونظامه » ؛ وقد أخذ هذا الكتيب يثير عليه سخط البرسبتيريين حتى أنهم شدوا عليه النكير فى كنائسهم ، ووضع مجمع وستمنستر إسم كتيبه فى قائمة الكتب التى لا يصح أن تقرأ واعتبر مؤلفه من الخوارج أو « المستقلين » ؛ وطلبوا إلى نقابة الطابعين أن ينظروا فى أمره ليلقى جزاء طبعه كتيبه بغير تصريح مخالفاً بذلك قانون الطبع ؛ ولكن التجاءهم إلى قانون الطبع ورغبتهم فى مصادرة كتيبه لم يجدهم شيئاً فقد أوشكت أن تقع مقاليد السلطة فى إنجلترة فى يد كرمويل وأحس الناس أن فجر الحرية يوشك أن ينهل على البلاد نوره .

وستتسع مسافة الخلف بينه وبين البرسبتيرنز فيكون هذا الخلف هو الصدمة الثانية لنفسه بعد الصدمة الأولى وهى فشله فى زواجه ؛ ويرى بعض المؤرخين أن غضب البرسبتيرنز عليه ، ونعتهم إياه بنعوت سوف نذكرها فى حينها كان آلم وقعاً فى نفسه من هجران زوجته إياه ...

(يتبع)

الضعيف